كلمة للناشر

هذه محاضرة القاها حضرة الصديق البحاثة المدقق السيد عبدالله مخلص عضو المجمع العلمي العربي بدمشق في احد مجتمعات حيفا الادبية ونشرت على الاثر في جريدتنا « الزهور » في الاعداد ٣٦ و ٣٧ و ٣٨ من سنتها الاولى لتعم فائدتها كل من لم تمكنه الظروف من استماعها . وقد لاقت يومذاك من التأثير وحسن الوقع في القلوب ما امطر الصديق وابلا من عبارات الثناء خصوصاً وقد جاء موضوع هذه المحاضرة في وقت كان البلد الفلسطيني اشد ما يكون احتياجا الى مواضيع امثاله تعالج ادواءنا وتذكر بما غبر من ايامنا المجيدة ...

ثم مضت الايام وهذه سنة تمر تقريباً ، واذا باصابع السوء تلعب في المحيط الفلسطيني ، واذا بها تزداد تغلغلا في صفوف الامة ، واذا بعرى الاتفاق والاتحاد يكاد يفصمها سوء تفاهم بين ابناء الوطن الواحد ، واذا بكلمتي مسلم ومسيحي يكثر ترددهما على الالسنة مقرونتين بشيء من الرغبة في التفوق والظهور كل على الآخر ، واذا بالمسلمين والنصارى في فلسطين تزداد الفئة منهما تباعداً عن الاخرى بعد ذلك التقارب الذي ضرب بين الناس مثله ، وبعد تلك الوحدة القومية والوطنية التي حمد الملا مسعاها ومسعى اربابها بعيد الحرب الكونية الكبرى ... تتفتحت عيون الاعداء حولنا وشمتت قلوب الخصوم فينا فطبلوا لهذا الانفكاك وزمروا ولعبوا ما شاءوا وشاءت سياستهم من الادوار ونحن لاهون عما يجري حولنا ومتلهون في التحت بعضنا من اثلة البعض الآخر

ان لم يكن علانية في الخفاء وفي الاجتماعات الخاصة . .

نقول هذا والاسف يملأ منا القلوب ولكن هي الحقيقة الواقعة الجارحة نسطرها عساها تكون عبرة يعتبر بها المعتبرون .

شعر الغيور على المصلحة العامة بسوء مغبة هذه الحالة وهبوا لتلافي الشر قبل ان يستعصي الداء فيعز الدواء ، وتذكر البعض محاضرة الصديق فطلبوا الينا ان نعيد اليوم نشرها والوقت وقتها وهي خير ما يلقى من الدروس الوطنية على الامة في هذا الوقت العصيب ، فنزلنا عند طلب الطالبين وشكرنا لحضرات الفضلاء غيرتهم وها اننا نزفها في هذه الرسالة الصغيرة .

على اننا قبل ان نختم هذه الكلمة الاولية لا نرى بدًّا من سرد قصة تحضرنا وقد طالما سمعنا اباءنا يقصونها و يقصون امثالها علينا دلالة على مبلغ الاتحاد الذي كانوا عليه في عصور «الجهل» السابقة و يقيسون بينها و بين عصر « المدنية والعلم » عصرنا الحاضر . والقصة واقعية جرت في حيفا لاربعين سنة خلت تقريبًا وهي :

وقع يومًا مسيحي قتيلا برصاصة طائشة من بندقية مسلم فقام المسيحيون يطالبون بدم قتيلهم ولما كانت الحادثة حادثة قضاء وقدر تفاهم شيوخ القوم على ان يدفع المسلمون للمسيحيين دية قتيلهم وقيمتها على ما هو معروف في ذلك الوقت — سلسلة ثلاثات من الارقام الهندية (٣٣٣٣٣) . وتم الاتفاق وحان وقت الدفع فطالب المسلمون المسيحيين ان يشاركوهم في دفع نصف قيمة الدية فدهش المسيحيون لهذا الطلب وهم اهل القتيل والمسلمون وحدهم هم المسؤولون عن دمه . فابرز المسلمون عندئذ صك اتفاق بين مسلمي حيفا ومسيحييها موقع عليه من شيوخ البلدة ووجهائها ينص على ان المسلمين والمسيحيين متفقون فيما بينهم ومتعاهدون على ان يكون للواحد ما للآخر وعليه ما عليه في

كل ما يطرأ من ديات وغرامات وتعديات وان تشارك الفئة الاخرى مناصفة في دفع ما يتطلب منها دفعه ايجاداً لروح السلام فيما بين الملتين الشقيقتين وايذانا بما بينهما من اخوة واتحاد لا تقوى على فصم عراها ايدي الخوارج ولا اصابع السوء . فاذعن المسيحيون للاتفاق ودفعوا نصف المطلوب من المسلمين دفعه بطيبة خاطر .

هذه قصة نترك للقارئ الكريم التفكر في مبلغ ما فيها من العبر ونسأل الله ان يسدد خطواتنا في خدمة الوطن العزيز وان يوحد القلوب لما فيه خير البلاد والسلام

شهر حزيران سنة ١٩٢٨

صاحب مجلة الزهرة وجريدة الزهور

في حيفا

المسلمون والنصارى

تمهيد

لما دُعيت الى هذا النادي الزاهر لأخطبكم فيه وقمت في حيص بيص واخذت اضرب اخماساً في اسداس لا لانني لم اكن من الخطباء المصاقع الذين يلعبون بالعقول ويستثيرون العواطف بل لانني من الذين لا يزالون يتناغون بقديمهم ويشيدون بذكره وبالتعبير الجديد رجعي يألف الماضي ويأنف من التجدّد بعض انواعه المملوءة بالسخائف والسخائم بخلاف اصحابنا المتجددين الذين هاموا بجديدهم وجنّوا به جنوناً مطبقاً فأنساهم قديمهم حتى الحديث منه وقطعوا كل رابطة لهم فيه مع أنّ لكل منهما حسنات وسيئات والناس بينهما وما يشتهون وما تهوي اليه افئدتهم ·

ولذلك كنت وانا انمّق هذه السطور اقدّم قدماً واؤخر اخرى لانها ستعرض عليكم صفحة من ذلك القديم المملوء بالمفاخر مما يجب ان ينسج على منواله وان يحتذى مثاله في هذا الشرق البائس وفي مثل هذه الأيام العصيبة · فان فيه

المثل الأعلى للتسامح والتساهل وحسن الضيم والإباء والشمم وغيره من مكارم الاخلاق وطيب الأعراق التي اشتهر بها العرب وورثها الاباء الأبناء والأحفاد

اما موضوع كلامي فسيكون «المسلمون والنصارى» الذين اذا اتفقوا في هذه الأرض المقدسة التي تروّت بدماء اجدادهم وابائهم وعملوا على حفظ كيانها ورفع شأنها استطاعوا ان يستبقوها للعرب وان يحتفظوا بها للأجيال القادمة التي اسأل الله ان يعينها على ما ستلاقيه من نكبات وأهوال . وسأبدأ كلامي بما ورد في القرآن العظيم وهو كتابنا السماوي الذي انزل على النبي العربي محمد بن عبدالله صلى الله عليه وعلى اخوانه الانبياء ثم اردفه بما جاء في السنّة سنّة ذلك الرسول الكريم والكتاب والسنة عند المسلمين هما لباب الاحكام ومرجع المعاملات ويأتي بعدهما القياس والاجماع فأقول

النصارى في الكتاب

جاء في القرآن العظيم :

«لتجدنّ اشدّ الناس عداوةً للذين آمنوا اليهودَ والذين اشركوا ولتجدنّ اقربهم مودّةً للذين آمنوا الذين قالوا انا

نصارى ذلك بانّ منهم قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون »

وجاء ايضاً : «لا تجادلوا اهل الكتاب الاّ بالتي هي احسن»

وجاء ايضاً : « لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرّوهم وتُقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين»

وجاء ايضاً :« قولوا آمنا بالله وما انزل الينا وما انزل اليكم »

وجاء ايضاً :« ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيعٌ وصلواتٌ ومساجدُ يذكر فيها أسمُ الله كثيراً »

وجاء ايضاً : «لولا ينهاهم الربانيونَ والاحبارُ عن قولهم الاثمَ وأكلهم السُحتَ لبئس ما كانوا يفعلون »

وجاء ايضاً : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم اجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون »

الى غير ذلك من الآيات البيّنات وفيها من الوضوح والصراحة ما لا نحتاج بعدهما الى اقامة دليل او برهان على ان الدين الاسلامي يعتبر النصارى أقرب الناس مودة للمسلمين ويقرّ لرجالٍ دينهم الحرمة اللائقة بهم

النصارى في المدينة

جاء في كتاب انسان العيون في سيرة الأمين والمأمون وهو احد كتب السير التي تضمنت سيرة حياة النبي ويسمى السيرة الحلبية ايضاً نسبة الى مؤلفها برهان الدين الحلبي ان وفد نصارى نجران لما وفدوا على الرسول وكان عددهم ستين راكباً أرادوا الصلاة في مسجده الذي نسميه اليوم الحرم المدني لوجوده في يثرب مدينة الرسول فاراد الناس منعهم فقال الرسول دعوهم ، فاستقبلوا المشرق وصلوا صلاتهم وهم بثياب الحبرة وأردية الحرير مختمين بخواتم الذهب . ونجران كما لا يخفى على المطلعين منكم هي بيت عبادة كانت لبني الحارث بن كعب وكانوا يعظمونها بل هي من البيوت المعظمة عند نصارى العرب بدليل تسميتها كعبة نجران وكانت في مخاليف اليمن من ناحية مكة وقد بنيت على مثال الكعبة مضاهاة لها وكان فيها اساقفة معتمون

وقد جاء في كتب الحديث والتاريخ ان النبي اوصى بقبط مصر خيراً بقوله : اذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط

(١) السيرة الحلبية جزء ٣ صفحة ٢٣٩

خيراً فأن لهم ذمة ورحماً[1]

وفي السنة النبوية ما هو ابلغ من هذا وذاك فقد روى لنا البخاري ان الرسول سمى مات النجاشي ملك الحبشة — وهو الذي كان أحسن وفادة رسل الرسول لما جاؤوه بالدعوة الى الاسلام واكرم مثوى المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة من اضطهاد قريش لهم وهم في مكة — قال

مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على اخيكم أصحمه

وفي رواية استغفروا لاخيكم

وأصحمة هذا هو ملك الحبشة وكان نصرانياً[2]

في عهد الخلفاء الراشدين

نستفتح هذا الفصل بالجملة البليغة التي جاءت في خطاب ابي بكر الصديق خليفة الرسول الأول الذي قال وسوف ترون باقواماً قد فرّغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا انفسهم له ونثني بالحادثة الآتية

يكاد يتفق اهل التاريخ على ان الخليفة الثاني لرسول الله عمر ابن الخطاب قد شد الرحال من المدينة في الحجاز الى بيت المقدس في فلسطين حباً في حقن الدماء ونزولاً على

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١ (٢) صحيح البخاري ج ٥ ص ٥٦

زادة النصارى الذين طلبوا بلسان بطريركهم صوفرونيوس قدوم عمر ليستلم المدينة واحتمل متاعب ذلك السفر الطويل الشاق وعاهد النصارى ذلك العهد السهل السمح الذي أباح لهم فيه حرية الاقامة موقتًا او دائمًا او السفر مع الروم الذين اخذوا يجلون عن البلاد ومن اهم ما تساهل به عمر هو مراعاته لشعور النصارى بقوله في تلك العهدة

« وانه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيء من اموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار احد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود . وايلياء هذه هي بيت المقدس

وعلى ذكر خبر فتح البيت المقدس على يد الخليفة عمر فلنذكر له بخير ما أبداه من اصالة الرأي وبعد النظر في صلاته بجانب كنيسة القيامة وتحت حنية كنيسة المهد في بيت لحم فقد قصّ علينا البطريرك افتيشيوس المكنى بسعيد بن بطريق في كتابه[1] انه لما ادركت عمر الصلاة وهو في صحن الاولى قال للبطريرك « اريد ان اصلي » فقال له صل في موضعك يا امير المؤمنين فقال عمر « لا

(١) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج ٢ ص ١٧

اصلي هنا » فاخرجه البطريرك الى كنيسة قسطنطين وطرح له حصيراً في وسط الكنيسة فقال عمر لا ولا هنا ثم خرج عمر الى الدرجة التي على باب كنيسة مار قسطنطين مما يلي الشرق فصلى وحده على الدرجة ثم جلس وقال لصوفرونيوس البطريرك أتدري لمَ لم اصلّ داخل الكنيسة قال لا فقال له عمر لو صليت داخل الكنيسة لكانت تفلت منك وتخرج عن يدك ويأخذها المسلمون منك بعدي ويقولون هنا صلى عمر ولكن إئتني بقرطاس فاكتب لك سجلا فكتب عمر سجلا على ان لا يصلي احد من المسلمين على الدرجة الا واحد فواحد ولا تجمع فيها صلاة ولا يؤذن عليها ودفع السجل الى البطريرك

اما عن كنيسة بيت لحم فقد قال[1]

ثم ذهب عمر الى بيت لحم لينظرها فحضرته الصلاة فصلى داخل الكنيسة عند الحنية القبلية وكانت الحنية كلها منقوشة بالفسيفساء وكتب عمر للبطريرك سجلا ان لا يصلي في هذا الموضع من المسلمين الا رجل بعد رجل ولا تجمع فيه صلاة ولا يؤذن فيه ولا يغير منه شيء

(١) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج ٢ ص ١٨

يقول ابن البطريق « وفي عصرنا هذا خالف المسلمون سجل عمر الخطاب فقلعوا الفسيفساء من الحنية وكتبوا فيها ما احبوا وجعلوا الصلاة وأذّنوا فيها وكذلك فعلوا في الدرجة التي كانت على باب كنيسة قسطنطين التي صلى عليها عمر واخذوا نصف دهليز الكنيسة وبنوا فيه مسجداً وسموه مسجد عمر » انتهى كلام ابن البطريق

قلنا ويظهر ان الحنية القبلية قد أُعيدت فوراً للنصارى لوجودها داخل الكنيسة ولا علاقة للمسلمين بها اليوم او قبلها اما الجامع العمري فعلى ما يظهر من وصف المؤرخ ووضع الكنيسة اليوم انه بني على الدرج الخارجي لها

ومما نذكره على سبيل الاستطراد عن كنيسة بيت لحم ان عبدالله بن عمرو بن العاص كان يبعث بزيتٍ يسرج فيها حيث ولد عيسى عليه السلام

ومن الاعمال التي تلفت النظر وتستلزم الدقة والانتباه وتدل على تسامح المسلمين مع اهل الذمة وحمايتهم لهم ما رواه البياذري عن ردّ المسلمين الخراج على اهل حمص عندما اضطروا الى مفارقتهم والقدوم الى اليرموك لقتال الروم قال

---

(١) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ج ٢ ص ٤١٤

لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم اليهم لوقعة اليرموك ردوا على اهل حمص ما كانوا اخذوا منهم من الخراج وقالوا: شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على امركم (١)

واثبتوا بذلك ان الخراج وهو ما يؤخذ من الارض والجزية وهي ما تؤخذ على الرؤوس وغيرها من الضرائب انما هو اجر الخدمات العامة التي تقوم بها الدولة تستوفيه لقاء حفظ الارواح وحماية الحقوق واستبقاء الانسان آمناً في عقر داره في ذلك الزمن الذي كان فيه الحق للقوة

اما في هذا العصر الذي يسمونه عصر النور والمدنية ظلماً وعدواناً والذي لا يخجلون من نعته بانه عصر القوة للحق فتجبى الضرائب لتحويل اوطان السكان الى آخرين واحياء اللغات الدارسة وسك النقود من ورق وورق في لغات ثلاث الامر الذي لم تره الاجيال السالفة ولم تروه التواريخ والمثل الاذى بالضعيف الذي لا حول له ولا طول لاسترضاء القوي ذي البأس والمراس . ومن ابناء هذه الامم المتمدينة من يقول بان الضرائب رسم ضمان وان الحكومات التي تتقاضاها هي بمثابة شركات الضمان الضامنة للأنفس والاموال والثمرات

(١) فتوح البلدان ص ١٤٣

في الدولة الاموية

الدولة الاموية دولة عربية محضة وقد كان خلفاؤها يحسنون معاملة النصارى فمن التساهل المحمود الذي كان يبديه عبد الملك بن مروان نحو الاخطل التغلبي الشاعر النصراني الذي كان يدخل على الخليفة وهو يترنح ثملاً ذلك الشاعر المتهكم الذي لا يبالي ان يقول :

ولست بصائم رمضان طوعاً ولست بآكل لحم الأضاحي
ولست بقائم ابداً أُنادي قُبَيل الصبح حي على الفلاح
ولست بزاجر عيساً بكوراً الى بطحاء مكة للنجاح
ولكني سأشربها شمولا وأسجد عند منبلج الصباح

بل ذلك الشاعر الجريء الذي يجيب الخليفة على سؤاله لم لا تسلم ؟ بقوله :

ان انت احللت لي الخمر ووضعت عني صوم رمضان اسلمت

ويقول اذ يسأله الخليفة : ما بلغ منك الشراب ؟ قال يا امير المؤمنين اذا شربتها فالموت اهون عليّ من شِسْع نعلي ! فقال قل فيه شعراً فقال :

اذا ما نديمي علّني ثم علّني ثلاث زجاجات لهن هدير
جعلت اجر الذيل مني كأنني عليك امير المؤمنين امير

من هذا التساهل المحمود الى ثقته بالنصارى وتوليتهم خدمة المسجد الاقصى في بيت المقدس فقد روى لنا مجير الدين الحنبلي في كتابه الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل « انه كان للمسجد الاقصى عشرة خدام من النصارى يتوارثون خدمته في عمل الحصر وكنس حصر المسجد وكنس القناة التي يجري الماء فيها الى الصهاريج وكنس الصهاريج

وربما قال قائل ان هذه على كل حال خدمة لا تستوجب التشريف والفخر فنجيب عليه ان خدمة بيوت العبادة لا سيما ما كان منها مثل المسجد الاقصى مشتركا بين الامم فقد كان زونا للمشتري فاصبح هيكلا لليهود ثم صار بيعة للنصارى ثم عاد مسجداً للمسلمين يقصده اليه الزوار من كل صوب وحدب على اختلاف الملل والنحل ان مثل هذه الخدمة لهي مدعاة للتفاخر والتباهي زد على ذلك ان خلفاء بني امية قد اختصوا النصارى بالخدمات الخفيفة وعهدوا بالثقيلة منها الى اليهود فقد كان للمسجد عشرة رجال منهم ايضاً وتوالدوا فصاروا عشرين

(١) الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل ج ١ ص ٢٤٩

رجلاً لكنس اوساخ المسجد الناشىء في المواسم والشتاء والصيف ولكنس المطاهر التي حول الجامع وكذلك عمل زجاج القناديل والاقداح والثريات كان من شأن عمال اليهود الذين كانوا يعفون وسائر الخدم من الجزية اي من الضرائب

ولا بد انكم تعلمون جميعاً ان حجابة كنيسة القيامة هي اليوم في ايدي عائلة اسلامية وهم يجلسون على مصطبة الكنيسة بصائمهم وحجابهم ولا يستكبرون عن خدمة كنيسة للنصارى كما ان المسلمين لا ينكرونها عليهم بل يعدون ذلك خدمة تستلزم المباهاة

ومما يذكر لعمر بن عبد العزيز المعروف بورعه وتقواه وهو احد خلفاء بني امية انه اعطى بطريقاً الف دينار يستألفه على الاسلام (١)

هذا غير اصطفاء معاوية بن ابي سفيان باني مجد تلك الدولة الاثيل ابن أثال الطبيب النصراني لنفسه وافتقاده له واعتماده فيه وغير استصحاب الحجاج بن يوسف الثقفي عامل العراقين ياذوق الطبيب واستخدامه اياه في صناعة الطب واعتماده عليه وثقته به وبمداواته

---

(١) محاضرات المجمع العلمي الروسي ج ١ ص ٤٨

في الدولة العباسية

ليس ادل على ما كان للنصارى من الحرمة الوافرة في الدولة العباسية اكثر من هذه القصة التي رواها لنا ياقوت الحموي في كتابه ارشاد الاريب الى معرفة الاديب المعروف بمعجم الادباء او طبقات الادباء عن القاضي اسمعيل بن اسحق قاضي بغداد فقد قال « ودخل الى القاضي اسمعيل بن اسحق عبدون بن صاعد الوزير وكان نصرانياً فقام له ورحب به فرأى انكار الشهود ومن حضره فلما خرج قال لهم قد علمت انكاركم والله قد امرنا بان نبرّ من لم يقاتلنا في الدين ولم يخرجنا من ديارنا وهذا الرجل يقضي حوائج المسلمين وهو سفير بيننا وبين خليفتنا وهذا من البر فسكتت الجماعة » (١)

قاضٍ من قضاة المسلمين بل قاضي قضاتهم في بلد هي عاصمة السلطنة ودار الخلافة يقوم في مجلس حكمه واملاء الشهود والمتداعين لنصراني يدل على تسامح كبير واهتمام عظيم من رجل يمثل الشرع الاسلامي وينم عن الحالة الاجتماعية في ذلك الزمن اذ يقول عن ابن صاعد انه سفير بين المسلمين

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٢٥٦

وبين خليفتهم

وترجم ياقوت في كتابه هذا الى اسحق بن يحيى بن شريح الكاتب ابو الحسين النصراني وقال ذكره محمد بن اسحق النديم في كتابه الفهرست وقال انه كان جيد المعرفة بامر الدواوين والخراج ومناظرة العمال وله معرفة تامة بالنجوم . وقال انه كان حياً في سنة ٣٧٧ هجريه الموافق لسنة ٩٨٧ ميلادية[1]

وكذلك كانت الحالة في زمن الامارة الاخشيدية في مصر في خلافة العباسيين فقد نقل المقريزي في خططه وصف المسعودي المؤرخ لليلة عيد الغطاس في سنة ٣٣٠ هـ ٩٤١ م بقوله ولقد حضرت ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج امير مصر في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطيف بها وقد أمر فأسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط الف مشعل غير ما اسرج اهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر بشاطىء النيل في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين ومن النصارى منهم في الزوارق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على سائر الشطوط لا يتناكرون

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٢٣٨

كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر والملاهي والعزف والقصف وهي احسن ليلة تكون بمصر واشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغطس اكثرهم في النيل (١)

ومن الادلة التي نتخذها على ما كان بين المسلمين والنصارى من حسن المعاملة وجميل المجاملة في العهد العباسي ما رواه القاضي التنوخي في كتابه نشوار المحاضرة واخبار المذاكرة قال نقلا عن عم ابي الحسن بن مكرم القاضي (٢)

كنت خصيصاً بأبي الحسن علي بن عيسى وزير المقتدر بالله العباسي وربما شاورني في شيء من امره فدخلت عليه يوما وهو مغموم جداً فقدرت انه بلغه عن المقتدر امر كرهه فقلت هل حدث شيء ؟ واومأت الى الخليفة فقال ليس غمي من هذا الجنس ولكن ما اشدّ منه فقلت ان جاز ان اقف عليه فلعلي اقول شيئاً فقال نعم كتب اليّ عاملنا بالثغر ان اسارى المسلمين في بلد الروم كانوا على رفقٍ وصيانة الى ان ولي آنفا ملك الروم حدثان فعسفا الأسارى واجاعاهم

(١) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٦

(٢) نشوار المحاضرة ص ٣٠

واعر باهم وعاقباهم وطالباهم بالتنصر وانهم في جهد جهيد وبلاء شديد وليس هذا مما لي فيه حيلة لانه امر لا يبلغه سلطاننا ولا الخليفة ولا يطاوعاني فكنت انفق الاموال واجتهد واجهز الجيوش حتى تطرق القسطنطينية فقلت ايها الوزير : ههنا رأي أسهل مما وقع لك يزول به هذا فقال قل يا مبارك فقلت ان بانطاكية عظيما للنصارى يقال له البطرك وبيت المقدس آخر يقال له الجاثليق وامرهما ينفذ على ملك الروم حتى انهما ربما حرما الملك فيحرم عندهم ويحلانه فيحل وعند الروم ان من خالف منهم هذين كفر وانه لا يتم جلوس الملك ببلد الروم الا برأي هذين وان يكون الملك قد دخل الى بيعتهما ويقرب بهما والبلدان في سلطاننا والرجلان في ذمتنا فيأمر الوزير بان يكتب الى عاملي البلدين باحضارهما وتعريفهما ما يجري على الاسارى وان هذا خارج عن الملة وانهما ان لم يزيلا هذا لم يطالب بجريرته غيرهما وينظر ما يكون الجواب قال فاستدعى كاتبا وأملى عليه كتابا في ذلك وانفذهما في الحال وقال سرّيت عني قليلا وافترقنا فلما كان بعد شهرين وايام وقد أنسيت الحديث طلبني اليه فركبت وانا مشغول القلب بمعرفة السبب الذي دعيت لاجله حتى وصلت اليه فوجدته مسروراً

فحين رآني قال · يا هذا احسن الله جزاءك عن نفسك ودينك وعني فقلت ما الخبر ؟ فقال كان رأيك في امر النصارى أبرك رأي واصح وهذا رسول العامل قد ورد بالخبر واوما اليه ان يخبرنا بما جرى فقال الرجل انفذني العامل مع رسول البطرك والجاثليق برسالتهما الى قسطنطينية وكتبا الى ملكيها : انكما قد خرجتما عن ملة المسيح بما فعلتماه بالاسارى ولكن ليس لكماذلك فانه حرام عليكما ومخالف لما أمرنا به المسيح من كذا وكذا وعددا اشياء من دينهما فاما زلتما عن هذا واستأنفتما الاحسان الى الأسرى وتركتما مطالبتهم بالتنصر والا لعنّاكما على هذين الكرسيين وحرمناكما · قال فمضيت مع الرسول فلما صرنا بقسطنطينية حجبتُ عن الملكين اياما وسعوا بالرسول ثم استدعياني اليهما فسلمت عليهما فقال لي ترجمانهما · يقول لك الملكان ان الذي بلغ ملك العرب من فعلنا بالاسرى كذب وتشنيع وقد اذنا في ادخالك دار البلاط لتشاهد اساراكم فترى احوالهم بخلاف مابلغكم وتسمع من شكرهم لنا ضدّ ما اتصل بكم قال ثم حملت الى دار البلاط فرأيت الاسارى وكأنّ وجوههم قداخرجت من القبور تشهد بالضرر وما كانوا فيه من العذاب الا انهم مرفهون في ذلك

الوقت وتأملت الى ثيابهم فاذا جميعها جدد فعلمت اني منعت من الوصول تلك الايام حتى غير زيّ الأسارى وقال لي الأسرى نحن للملكين شاكرون فعل الله بهما وصنع واوماؤا اليّ ان الأمر كان كما بلغكم ولكنه خفف عنا وأحسن الينا بعد حصولك ههنا وقالوا لي كيف عرفت حالنا ومن تنبه علينا وانفذك بسببنا ؟ فقلت لهم . ولي الوزارة علي بن عيسى فبلغه ذلك فأنفذ من بغداد وفعل كذا وكذا قال فضجوا بالدعاء الى الله تعالى للوزير وسمعت امرأة منهم تقول سريا علي بن عيسى لا نسي الله لك هذا الفعل قال فلما سمع ذلك علي بن عيسى أجهش بالبكاء وسجد سجداً لله تعالى وبرّ الرسول وصرفه .

ونقل ايضاً عن لسان اسير من المسلمين قال (١) لما أسرنا في بلد الروم مرت بنا شدائد فحملنا عدة ليالي لا ننام من البرد وكدنا نتلف ثم دخلنا قرية فجاءنا راهب فيها بأكسية وقطف ثقيلة دفيئة فغطى جميع الأسارى كل واحد بواحدة فبتنا تلك الليلة فأقامونا في تلك القرية اياماً فكانت سبيلنا هذه ثم نقلونا الى أخرى فعادت حالنا في العرى والبرد الى الاولى فسألنا عن السبب في ذلك فقالوا : ان رجلاً ببغداد من التجار يقال

(١) نشوار المحاضرة ص ٣٣

له ابن رزق صهر ابن ابي عون توصل الى ان حصلت له هذه الأكسية والقطف عند الراهب بغرامات مال جليل وسأله ان يعطي بها من يحصل في قريته من أسارى المسلمين وضمن له ان ينفق على بيعة في بلد الاسلام بازاء هذا في كل سنة شيئاً ما دامت الأكسية محفوظة للأسارى فالراهب يفعل ذلك في هذه القرية وما قبلها وما بعدها ليس فيها شيء من هذا فأقبلنا ندعو لابن رزق الله كلما لفحنا البرد ولحقتنا الشدة ونحن لا نعرفه . اه

قلنا وفي ما أبداه البطريرك الانطاكي والجاثليق الاورشليمي من الاهتمام بامر الاسارى وحملهما على ملكي القسطنطينية تلك الحملة الصادقة ما يدل على رضاهما عن تصرفات الحكومة اذ ذاك وحسن معاملتها للنصارى وسريان روح الالفة والوئام بين الفريقين وفي عمل ذلك التاجر المسلم وذلك الراهب النصراني من حب الخير والبر ما يذكر بالاعجاب والثناء .

ومما يجوز ان نتخذه دليلاً على إباء النصارى وشممهم في الدور العباسي ان ابا الفرج منصور بن بشر النصراني الكاتب كان منقطعاً الى ابي العباس بن ماسرجس الطبيب فانفذه مرة

الى ابي عمر اسمعيل بن احمد عامل البصرة في بعض حاجاته فعاد من عنده مغضباً لانه لم يستوف له القيام عند دخوله واراد ابو العباس انفاذه بعد ايام فأبى وقال

لو أعطيتني زورق ابن الخواستيني مملوءًا كيمياء كل مثقال منه اذا وضع على الف مثقال صفر صار ذهباً ابريزاً ما مضيت اليه فأمسك عنه مغيظاً وهذا زورق معروف بالبصرة وحمله ثلاثمائة الف رطل (١) فاذا كان كاتب طبيب يأنف من الذهاب الى عامل كبير لانه لا يفيه حق القيام فان في هذا الاباء دلالة على ان رجال الدولة كانوا في ذلك الزمن قد عودوا النصارى على القيام لهم واناالتهم الحرمة والرعاية التامة .

هذا غير ما كان يعامل به خلفاء بني العباس الاطباء والحكماء من النصارى والتعويل عليهم في المهمات واستعمالهم في ترجمة الكتب من السريانية واليونانية واللغات الاجنبية الاخرى واخبار الرشيد والمأمون مع امثال هؤلاء مستفيضة في الكتب .

في الدولة الفاطمية

ظهرت هذه الدولة في المغرب ثم امتد سلطانها الى مصر

---

(١) معجم الادباء ج ٢ ص ٥٧

والشام والعراق وعاشت نحو مائتي عام وأولت اقباط مصر ثقتها وولت رجالهم المناصب العالية فكان منهم الوزراء وكان منهم رؤساء الدواوين ورجال المال والاعمال نذكر منهم عيسى بن نسطورس بن سورس وموسى بن شهلول والشافي زرعة بن عيسى بن نسطورس والرئيس فهد بن ابراهيم وصاعد بن عيسى بن نسطورس والشرف بن اسعد ومنصور بن سورس بن مكراوه وغيرهم ممن يطول ذكر اسمائهم واستقصاء أخبارهم .

وكان لا بد من ظهور آثار لهذا الاشتراك العملي في ادارة الاحكام فاخذ النصارى يعتزون برجالاتهم حتى بلغ الامر بالخلفاء ان يأمروا بتعطيل الدواوين ايام اعياد النصارى الكبرى واقامة معالم الزينة والمهرجانات فيها وهذا المقريزي يذكر لنا في كتابه المسمى بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ان ليلة عيد الميلاد كان يفرق فيها ايام الدولة الفاطمية على ارباب الرسوم من الاستاذين المخنثين والامراء المطوقين وسائر الموالي من الكتاب وغيرهم الجامات من الحلاوة القاهرية والمثارد التي فيها السمك وقرب الجلاب وطمافير الزلابية والسمك المعروف بالبوري (١)

(١) خطط المقريزي طبع مصر ج ٢ ص ٢٥

الى ان يقول : وادركنا الميلاد بالقاهرة وسائر اقليم مصر موسماً جايلاً يباع فيه من الشموع المزهرة بالاصباغ المليحة والتماثيل البديعة باموال لا تحصر فلا يبقى احد من الناس اعلاهم وادناهم حتى يشتري من ذلك لاولاده واهله وكانوا يسمونها الفوانيس ويعلقون منها في الاسواق بالحوانيت شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة والملاحة(١)

وذكر لنا ان الخليفة الفاطمي الظاهر لاعزاز دين الله نزل ليلة عيد الغطاس في سنة ٤١٥هـ ١٠٢٤م بنفسه وامر بان توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيداً كثيراً وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فقسسوا هناك طويلا الى ان غطسوا في النيل .

وقال انه في عيد الغطاس سنة ٥١٧هـ ١١٢٣م فرق اهل الدولة ما جرت به العادة لاهل الرسوم من الاترج والنارنج والليمون في المراكب وأطنان القصب والبوري بحسب الرسوم المقررة بالديوان لكل واحد(٢ وذكر في خميس العهد الذي يعمل قبل عيد الفصح بثلاثة ايام ان الدولة كانت تضرب في دار

---

(١) خطط المقريزي طبع مصر ج ٢ ص ٢٦

(٢) » » » » ٢ » » ٢٧

الضرب خمسمائة دينار تعمل خراريب اي قطع صغيرة وتفرق في اهل الدولة برسوم مقررة (١) وقد زيدت هذه حتى بلغت ضعفها (٢)

على ان اكثر البذخ كانت تعمله الدولة في عيد النوروز القبطي اذ تتعطل فيه الاسواق ويمتنع الناس عن الاعمال وتفرق فيه الكسوة الفاخرة لرجال اهل الدولة واولادهم ونسائهم والرسوم من المال وحوائج النوروز من عين وورق وبين ذلك البطيخ والرمان وعراجين الموز وافراد البسر واقفاص التمر والسفرجل والعناب والهريسة المعمولة من لحم الدجاج والضأن والبقر والخبز الى غير ذلك من الاعطية التي ذكرها المقريزي عمن تقدمه (٣) والتي يطول شرحها لو تقصيناها .

ولا يطعن في تسامح الفاطميين وتساهلهم ظهور امثال الحاكم بامر الله احد خلفائهم وهدمه كنيسة القيامة وبعض كنائس مصر ومحاولته هدم كنيسة المهد في بيت لحم وحمله النصارى على حمل صليب من الخشب في رقابهم بوزن معلوم واليهود

---

(١) خطط المقريزي ج ٢ ص ٢٧

(٢) » » ٢ ص ٣٢٢

(٣) » » ٢ ص ٣٨٩

على حمل قطعة من الخطب بذلك الوزن تقرّبقاً لهم عن المسلمين ثم رجوعه الى الصواب واعادة ما تهدم من الكنائس فان في تصرفاته الغريبة ما انكرها المسلمون واستاؤا منها اكثر من غيرهم فقد ابتدع لهم بدعة في الدين لا تزال مستمرّة الى يوم الناس هذا

واذا اردنا ان نقيم لكم الدليل على ما قلناه نظن ان سيئ سرد القصة الآتية الغناء فقد روت لنا التواريخ ان المسلمين لما تحرّجت صدورهم من اعمال بعض عمال الحاكم كتبوا قطعة وعلقوها في صدر مثال امرأة فيها : بالذي اعز النصارى بنسطورس واليهود بمنشي واذل الاسلام بك الا ما كشفت عنا فرآها وقد كان كثير الجولان في الاسواق فأمر بقتل المشتكى منها بمجرد القول وهو عمل الى الجنون اقرب منه الى العقل وقد قتل كثيراً من سراة المسلمين وقضاتهم ووزرائهم فهو مجموعة عجائب وغرائب

والذي أراه ان الحاكم بامر الله كان يرمي بتلك البدعة التي ابتدعها الى غرض سياسي البسه لباس الدين ليستميل الناس اليه والدين سلطان تعنو له النفوس وتنحني أمامه الرقاب وما زلنا نرى امثلة من ذلك حتى في هذه العصور الراقية فان بعض الحكومات كانت تطارد الرهبان في بلادها وتغلق

الكنائس دونهم ثم تأتي الى الشرق وتطالب بحمايتهم باسم الدين المسيحي وكذلك اليهود فانهم لما اجمعوا امرهم بينهم على القدوم الى فلسطين بقضهم وقضيضهم ومهاجمتها بخيلهم ورجلهم مهد دعاتهم الطريق الى ذلك بان في فلسطين هيكلهم ومقادسهم وان داعية الدين تدعوهم الى الرحلة اليها والاقامة فيها

ثم سمعنا رجالات بعض الدول يقولون من على رؤوس منابرهم ان فتح بيت المقدس هو آخر حلقة من سلسلة الحروب الصليبية التي استنزفت قوى المسلمين والنصارى آماداً طويلة فما عتمنا ان رأينا تلك الدولة تدفع بمصير بيت المقدس وفلسطين كلها الى احضان الصهيونية ولا تبالي ان تقول انها ستحافظ على حقوق النصارى والمسلمين الدينية والمدنية كأن ديننا ودنيانا اوشكا ان يصبحا تحت رحمة الصهيونيين الى غير ذلك من الامثلة الموفورة المشهورة

وكما انّ رجال القضاء والادارة والسياسة في الدول العربية قد احسنوا معاملة النصارى كل الاحسان وقابل هؤلاء ذلك بمثله فاخلصوا الخدمة ونصحوا النصح لمخدوميهم فانّ رجال العلم لم يغمطوهم حقهم فذكروا لكل شهير منهم اختصاصه وعلمه ودونوا لهم فضلهم وفضائلهم وترى الامثلة على ذلك ماثلة في

كتب التاريخ والتراجم نخصّ بالذكر منها كتاب الفهرست لابن النديم ومعجم الادباء لياقوت الحموي واخبار الحكماء باخبار الحكماء لجمال الدين القفطي وعيون الانباء في طبقات الاطباء لابن ابي اصيبعة ووفيات الاعيان لابن خلكان وفوات الوفيات لابن شاكر الكتبي وغيرهم من مؤلفات المسلمين الممتعة

وبعد انقراض الدولة الفاطمية ويقال لها العبيدية وتسمى ايضاً العلوية استولى على الملك آل ايوب باسم الدولة السلجوقية ثم استقلوا بالحكم وكانت الحروب الصليبية اخذت تشتدّ بين المسلمين والنصارى وظلت هذه الحروب زهاء قرنين تهلك الحرث والنسل وتشغل الشرق والغرب الى ان سكنت ريحها وخمدت نارها بيد انّ في الحروب الصليبية نفسها ظهرت مكارم اخلاق من قواد الفريقين المتحاربين واهم ما فيها سماح ملوك بني ايوب لنصارى الفرنجة بالاقامة وفتح الاديار في الارض المقدسة والحرب حامية الوطيس وما زلنا نرى اوامرهم الخطية محفوظة في دير الفرنسيسكان ببيت المقدس وقد آل امر الحكم الى دول المماليك التي كانت عربية الظاهر اعجمية الباطن وكانت الجروح التي خلفتها الحروب الصليبية لم تندمل بعد فصار النصراني يوجس خيفة من المسلم والمسلم

بموقع شراً من النصراني واصبح كل منهما يتربص بأخيه الدوائر الى ان ظهرت الدولة العثمانية واستخلصت القسطنطينية من ايدي اليونان واتخذتها قاعدة الملك ودار الخلافة فتساهلت مع المغلوبين واقرتهم على ما في ايديهم من لغةٍ وعادةٍ وطقسٍ واخذ النصارى يعودون الى سابق مجدهم فكان منهم الوزراء والحكام والقضاة وكان رجال الدين منهم بوجهٍ خاصٍ موضع الحرمة ومحل الاعتبار من اكبر بطركية الى اصغر ابرشية على ما كنتم ترونه بأم العين وتلمسونه لمس اليد حتى في ايام نكبة تلك الدولة الاخيرة التي قضت عليها وعلينا معها ولعل العرب كانوا اكثر خسارة من الاتراك فقد استفظ هؤلاء باستقلالهم ودافعوا عنه برؤوس الحراب وقوة العقيدة واضعفناه نحن بالتخاذل والتنافر والتنابذ وضعف الايمان واستسلام الزعماء وقادة الافكار الى المستعمرين وجعلهم انفسهم مطايا لهم .

ومن اسباب النفور بين الفريقين في ايام العثمانيين ان نصارى العجم واعني بهم الفلاق والبغدان والصرب والبلغار واليونان والأرمن الذين كانوا يستثقلون الحكم العثماني سواء لاسلاميته او لثقل وطأته ويحاولون التخلص منه اخذوا

يطمحون الى الانفصال عن الدولة وقد نال اكثرهم مبتغاهم فصارت الدولة الاسلامية تنظر الى النصارى بعين الحذر وسرى ذلك الى افراد الامة فتأصلت بين الفريقين العداوة والبغضاء واضحى استئصالها من اصعب الامور

ولا بد من كلمة حق نسوقها ونحن في اواخر الحديث ان المدارس الاجنبية قد عملت على توسيع شقة الخلاف بين ابناء الوطن الواحد فاذا كان لها حسنة تعليمنا وتثقيفنا فان لها سيئة تفكيك رابطتنا واضعاف قوميتنا وهي سيئة تذهب تلك الحسنة وتفقدها مزيتها فصرنا نرى ان النصراني والمسلم اللذين كانا قبل جيل واحد يعيشان عيشة الاخوان لا يختلفان في الزي والعاطفة يشتركان في السراء والضراء قد اختلفت وجهات نظرهم وتعددت مذاهبهم السياسية فأصبح المتعلم في احدى المدارس الاجنبية يعتقد ان الامة التي درس آدابها وتخلق باخلاقها هي اعدل امم الارض قاطبة وان مدنيتها لا تعلوها مدنية ناسياً انه من ابناء امة لها خطرها واثرها المأثور في الحضارة وقدمها الراسخ في العلوم والآداب .

وان له كما لاولئك قومية يجب ان يفديها بالنفس والنفيس فعسى ان نثوب الى رشدنا وان نحافظ على كرامتنا

وان نعلم علم اليقين وان نعتقد اعتقاداً جازماً بان الانكليزي والافرنسي والاميركي والتلياني وغيرهم من الامم لا يقبلون بعدّنا في عدادهم وادخالنا في زمرتهم ولو نحن تأنكلزنا وتفرنسنا وتأمركنا وتتلينا اعتزازا منهم بقوميتهم واحتقارا لنا ولقوميتنا والسلام على من عرف قدر نفسه فانزلها منزلتها ووضعها في موضعها ولم يضعها ولم يضعها

اصلاح خطأ

حدث اغلاط مطبعية طفيفة هذه اظهرها

صفحة	خطأ	صواب
٦	الامين والمأمون	الامين المأمون
١٠	البياذري	البلاذري
٣٦	المشتكى منها	المشتكى منهما

الشرق

مجلة عربية ادبية جامعة

صاحبها ـ جميل البحري ـ حيفا ص ٢٤١

لقد صدرت هذه المجلة الحيفاوية مدة خمس سنوات متتابعة وتدرجت في مدارج الرقي حتى اضحت في مقام ينظر اليها فيه كبار العلماء الاعلام بعين العطف والتقدير وهي تصدر مرة في الشهر بجزئين متفرقين جزء ضخم طافح بالابحاث التاريخية والادبية والعلمية والاجتماعية والقصائد الشعرية لمشاهير الادباء والشعراء وملحق روائي يرسل مع كل عدد ويحوي اشهر الروايات الادبية والاخلاقية والتاريخية اشتراكها ٦٠ غرشاً في فلسطين و٧٥ في الخارج

الجمهور

جريدة عربية حرة

لقد نالت هذه الجريدة بالرغم من حداثة عهدها شهرة واقبالا قلما نالتها جريدة عربية فلسطينية اخرى لما تحويه من وطنية في المبدأ واخلاص في الخدمة وحرية وصراحة في الرأي وصدق في سرد الحوادث فضلا عن علم غزير وادب جم وهي تعنى بكل ما له علاقة بفلسطين وسكانها خاصة وبالبلاد العربية عامة وتنشر ايضاً اهم اخبار العالم ولها عناية خاصة باطلاع الجمهور على ما ينشر في فلسطين من القوانين والانظمة وما يجري فيها من الحوادث

صاحبها ومحررها : جميل البحري : عنوانها : حيفا صندوق البريد ٢٤١ مدير ادارتها : حنا البحري اشتراكها ٨٠ غرشاً في فلسطين ومئة في الخارج